# الدراسة الصوتية بين الجهود التراثية والحداثية

أ.بن ضياف زهرة كريمة

أستاذة مساعدة قسم –ب–

جامعة مولاي الطاهر –سعيدة–

**الملخص:**

اقتضت حكمة الخالق أن يكون الناس أمماً شتّى، وأن يكون لكل أمة خصائصها وسماتها ومقوماتها التي تميزها عن غيرها، ولعل أبرزها اللغة التي تحفظ كيانها واستقلالها وتضمن عملية التواصل بين أفرادها وجماعاتها، هذه اللغة التي يتألف نظامها أساساً من ثلاثة عناصر هي (الأصوات والكلمات والتراكيب) ، فضلا عن الإطار الثقافي الذي تستخدم فيه هذه المستويات،و لعل الأصوات هي أهم هذه المستويات على الإطلاق، إذ تسمح لنا بصوغ العديد من الأبنية اللغوية بغية التعبير بها عن حاجياتنا المادية والمعنوية التي لا حصر لها.

**الكلمات المفتاحية:** الصوت اللغوي، علم الأصوات، التراث. اللغة العربية

اعتاد الإنسان بموهبته العقلية وذكائه الفطري أن يصدر أصواتا للتعبير عما في نفسه وما تمليه رغباته الشخصية وما تحيط به من أجواء، عندها ينشأ صوته باصطدام الهواء الخارج من الرئتين بالأوتار الصوتية في الحنجرة، ليمرّ من خلال الفم أو الأنف حتى يصل إلى أذن السامع التي تقوم بدورها بتوصيل هذا الرمز الصوتي إلى المخ الذي يعطيه قيمته ودلالته، وذلك من خلال ترجمة الرمز الصوتي إلى المدلول الخاص به والمتعارف عليه ضمن جماعة لغوية معينة، ثم يقوم بإرسال إشارات عصبية للجهاز النطقي لإنتاج الرمز المطلوب الذي يتفق مع الموقف الكلامي حيث يقول فندرس: « وإنّما يسمى الصوت صوتا لأنّه الأثر الواقع على الأذن من بعض حركات ذبذبات الهواء والذبذبات في اللغة يحدثها الجهاز الصوتي للمتكلم»[1].

ولما كانت الأصوات اللغوية وسيلة من وسائل التواصل المختلفة التي يعرفها الإنسان ضمن الأداء الصوتي للكلام، مما يساهم بدور كبير في تحديد مفهوم رسالته اللغوية، فإن القدامى أولوا هذا الجانب عناية فائقة حيث يقول ابن جني: « أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[2]، فالمحلل لهذا التعريف يلاحظ أنّه يجمع بين عناصر مختلفة هي الصوت البشري للمتكلم والمتلقي، ثم التعبير المقصود وهو المعنى المراد إيصاله، فهذه

العناصر الملتحمة تمثل عملية التفاهم، وهكذا تكون اللغة وسيلة للتواصل ومساعدا آليا للتفكير، من حيث كونها تمثل جزءا هاما من السلوك الإنساني وهي فعل مكتسب من الإنسان وإلى الإنسان.

وقد شغلت اللغة العربية لأهميتها اهتمام العديد من الباحثين من القدم إلى يومنا هذا، فدرسوها وحللوها من جميع جوانبها الصوتية والنحوية والصرفية والدلالية ، باعتبارها معجزة القرآن الكريم الذي أحدث تغييرا فكريا وحضاريا في البيئة العربية، فكان حافزا للتفكير في وضع معايير للحفاظ على النطق السليم للغة من ناحية، وحصرها وجمعها من ناحية أخرى، ليسهل اكتسابها، خاصة للناطقين بغير اللغة العربية الذين اعتنقوا الإسلام، وهكذا توصلوا بعد دراسات عديدة إلى وضع علوم للغة العربية تشمل معظم مناحيها وجوانبها.

**1- الفكر الصوتي لدى العرب القدامى:**

حظي الجانب الصوتي باهتمام خاص لدى الدارسين القدامى على اختلاف اختصاصاتهم وتوجهاتهم العلمية منهم القراء، وذلك حينما استفحل اللحن الصوتي بين الأعاجم واتسعت موجته لتشمل بعض العرب، هذا إلى جانب العديد من العادات النطقية الكلامية في لغات الأعاجم التي نقلوها إلى العربية، عندها اتخذ هذا الجانب حيزا كبيرا من اهتمام ولاة الأمر والعلماء آنذاك، فأولى النحاة واللغويون الأصوات عناية كبيرة، وأجمعوا على عدم صحة الصلاة وراء من لا يحسن القراءة وعدّوا القراءة من غير تجويد لحناً، ووصفوا القارئ لحاناً[3]، كما أدركوا أهمية هذه الأصوات بالنسبة للقراءات القرآنية، فاشترطوا على مريديها أن يكون على دراية تامة بالأصوات وما يتعلق بها، معتمدين في دراساتهم الصوتية على الملاحظة الذاتية مضافة إلى فطرة الدارس، وثقافته والتزامه، وأمانته العلمية.

هذا إلى جانب العديد من النحاة وعلماء الأصول، فكانت الظاهرة الصوتية لديهم أساس وضع المعايير الرئيسية للنحو العربي، حيث يعتبر الصوت كظاهرة فيزيائية معينا لهم في منهجهم المبني على الملاحظة المباشرة، انطلاقا من قصة أبي الأسود الدؤلي (168 هـ)، حينما أراد ضبط حروف القرآن الكريم إذ قال لكاتبه: « إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فأنقط نقطة فوقه على أعلاه، فإن ضممت فمي فأنقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن اتبعت شيئا من ذلك عنه، فاجعل مكان النقطة نقطتين»[4]، معتمدا في عمله هذا على الجانب البصري والسمعي، في إدراك حقائق الصوت اللغوي، مما يشكل لدينا، دليلا قويا على أن الجهود اللغوية العربية قد بدأت وصفية تتعامل مع الصوت المنطوق بوصفه" أثرا سمعيا متولدا عن اهتزاز جسم مصوت يؤدي إلى حركة جزئيات الهواء الحاملة له في سلسلة متتابعة من التضاغطات والتخلخلات، فينتشر من

خلالها في مسافات بعيدة أو قريبة على شكل موجات غير مرئية " [5] إلى أن تستجيب لها أذن المتلقي، وما هذا إلا دليل على أن الفكر العربي تنبه منذ فترة مبكرة جدا إلى أهمية الصوت في اللغة الإنسانية.

وقد نمى هذا الجانب على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي ( 170 هـ)، الذي عرف بعبقريته وسعة علمه وثقافته، ويعدّ إلى جانب هذا مبتكرا لعلوم جليلة كعلوم العروض « كما كانت له معرفة بعلم الموسيقى وهو رائد المعجميات العربية معتمدا على سمعه المرهف الحساس، فوجه عنايته لأوزان الشعر وإيقاعه واستخرج لنا بحور الشعر وقوافيه أو علم العروض الذي لا يعدو أن يكون دراسة صوتية لموسيقى الشعر»[6]، مرتبا معجمه " العين" على أساس مخارج الحروف، ووسمه بالعين نسبة إلى أول صوت حلقي حسب ترتيبه الصوتي الذي اعتمده، معتمدا على الملاحظة وتذوق الحروف حين النطق بها، فيحدد بذلك مخرج الحرف وصفته[7]، و وفق إلى حد بعيد في ذلك بفضل منهجه الذي اهتدى إليه والقائم على تحليل الصوت خلال النطق به ساكنا، لأنه أوضح في التمييز والدلالة على مخرج الحرف من الكتابة، ولهذا استحق الخليل أن يكون مؤسسا ورائد المدرسة الصوتية واتبعه العديد ممن أتوا بعده، من بينهم تلميذه سيبويه (180 هـ) حين اهتم بالدرس الصوتي فبذل جهدا ملحوظا، إذ تناول هو الآخر الأصوات اللغوية من حيث مخارجها وصفاتها، فجعل حروف " العربية تسعة وعشرون حرفا، أما عدد مخارجها فستة عشر مخرجا"[8] متحدثا عن صفاتها الأساسية والثانوية والفارقة مع معالجته لبعض الظواهر الصوتية كالإدغام والإمالة مشيرا إلى طبيعة هذه الحروف ونوعها وأصولها وفروعها، والحالات الطارئة عليها أثناء التأليف داخل السياق اللغوي، وأفرد لهذه الدراسة جزء كبير من كتابه " الكتاب"[9].

هذا بالإضافة إلى عدد من العلماء الأجلاء الذين كان لهم باع كبير في مجال دراسة الأصوات اللغوية، وذلك لما بذلوه من جهود بارزة قيمة تشهد لها أمهات الكتب العربية المحتضنة بين طياتها، عصارة الفكر المتقد، والعبقرية العربية المتولدة عن الملاحظات الشديدة والوصف الدقيق لظاهرة الصوت اللغوي، وذلك بتتبع خواطرها ومسبباتها وتحديد مخارجها وصفاتها "، لكونها تعد أثر سمعيا ناتجا عن عدد من الذبذبات البسيطة التي تكون بدورها موجات مركبة يحملها الهواء الناقل إلى أذن المتلقي ثم عبر عصب السمع إلى المخ"[10] حيث يتم تفسيرها إلى لغة إنسانية مفهومة، ولعل أدق منهج اتخذه الدرس الصوتي الذي أثمر بنتائج قيّمة نجده عند ابن جني ( 392 هـ)، ويظهر ذلك واضحا في كتابه " سر صناعة الإعراب"[11] حيث تناول الصوت من الناحية العضوية ومن الناحية الوظيفية، حينئذ بدأ منهج الخليل بن أحمد الفراهيدي في التوسع وأدخل ابن جني منطق المقارنة في وصف وتحليل الصوت اللغوي وأقر بأن الصوت الطبيعي والصوت اللغوي يشتركان في نقاط عديدة حينما شبه جهاز النطق عند الإنسان بتلك الآلة الموسيقية التي يستخدمها لإنتاج عدد من الأصوات الموسيقية المختلفة، إذ يقول: «

شبه بعضهم الحلق والفم بالناي، فإنّ الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس، كما يجري الصوت في الألف عقلا بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم باعتماده على جهات مختلفة كان سبب استماعنا لهذه الأصوات المختلفة »[12].

ويتعرض ابن سينا هو الآخر في كتابه " أسباب حدوث الحروف" إلى قضايا جوهرية في كيفية حدوث الصوت، ويصفه وصفا يستمد مفهومه من المحيط الطبيعي إذ يدخل على منهج سابقيه المنهج التجريبي الملموس، ومثال ذلك قوله: الصوت كما يسمع تسمع له جهته، فلا يخلو، إما أن تكون الجهة تسمع لأن الصوت مبدأ تولده ووجوده في تلك الجهة، ومن هناك ينتهي، وإما لأن المنتقل المتأدى إلى الأذن الذي لا صوت فيه بعد أن يفعل الصوت إذا اتصل بالأذن ينتقل من تلك الجهة ويصدم تلك الجهة، فيتخيل أن الصوت ورد من تلك الجهة وإما للأمرين جميعاً»[13]، موضحا في ذلك العملية السمعية لدى الإنسان، وحدوث الصوت خارج الأذن لذلك تدركه الجهتان اليسرى أو اليمنى، ولذا كانت نتائجه في هذا الميدان خصبة ودقيقة وفيه يقول أحد المحدثين: « وحديث ابن سينا في هذه الرسالة أشبه بحديث علماء وظائف الأعضاء، فلا نكاد نلمح فيها أنه تأثر كغيره بكتاب سيبويه، فله مصطلحاته وله الوصف الأصيل لكل صوت»[14]، مما يجعله محل إعجاب، وتقدير من بعض اللغويين المحدثين.

ولابد أن نمتن لهؤلاء الدارسين لما بذلوه من جهود علمية أفادوا بها الدراسات اللغوية عامة واللسانيات بخاصة، فأشاروا إلى فضل الله تعالى على الإنسان إذ متعه بالجهاز النطقي، واستطاعوا بفضل منهجهم الذوقي الوصفي أن يرسموا هذا الجهاز من الحلق إلى الشفتين بكل أجزائه، فحددوا مخارج الأصوات وميزوا بين المجهور والمهموس والشديد و الرخو، ولذلك اتسمت هذه الدراسات القديمة بالدقة والشمولية مبنية على رهافة حسهم ودقة ملاحظاتهم مع الوصف والتحليل للعديد من الظواهر الصوتية.

وقد نالت بحوث ابن جني في مجال الدرس الصوتي إعجاب الدارسين المحدثين، وبخاصة حينما وصف الصوت اللغوي عندما يسبقه صوت آخر وكيف يتأثر هذا الصوت ويفقد بعض صفاته أو خصائصه ، ثم كيف يغير هذا الصوت في المعنى، هذا إلى جانب حديثه عن رمزية الحرف في كتابه " الخصائص" حينما قال " فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث ، فباب عظيم، مفصلا كل ذلك في ثلاثة أبواب من كتابه هذا مبرهنا فيها عن علاقة الدال بالمدلول، وذلك في قوله النضخ والنضح للماء ونحوه والنضخ أقوى من النضح قال تعالى:" **فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ**"[15] فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف والخاء لغلظتها لما هو أقوى منه في نفس

السياق[16]، مشيرا في ذلك إلى تتابع الأصوات اللغوية داخل التراكيب، بتأثيراتها اللسانية والسمعية، ودورها في تحقيق الانسجام بين الدوال والمدلولات.

ولما كانت هذه الدراسة الصوتية للأصوات المفردة من حيث مخارجها وصفاتها غير كافية باعتبارها تخضع لقواعد معينة في تجاورها، وارتباطاتها ومقاطعها، فهي في السلسلة الكلامية أشبه بحبات لؤلؤ في عقد مربوطة جنبا إلى جنب بخيوط ذات ألوان مختلفة تحتوي على حبات أكبر حجما من الأخرى، وهذا ما يقابل الحركات ذات الأطوال المختلفة، وعليه فإن دراسة الناحية الشكلية لسلسلة الكلامية تتطلب الوقوف على الوحدة الصوتية ليتسنى لنا من خلالها التعرف على الطريقة التي ركبت منها الكلمات والتفعيلات العروضية وكذا نسقها الإيقاعي المنغم، أي دراسة سلوكها داخل التركيب، ومثل هذه الدراسات لم تخلو من تراثنا العربي، حيث أن المنقب في موروثنا الصوتي يجلو أن للعرب القدامى بصمات نفيسة في هذا المجال تشير إلى ذكائهم الحاد وقدرتهم على التذوق اللغوي، فهم أهل الفصاحة والبلاغة، فعلى الرغم من أن دراساتهم في هذا المجال لم تكن دراسة مقصودة إلاّ أننا يمكننا عدها إرهاصات أولى في هذا الجانب، منها ما يتعلق بالدراسة المقطعية ومنها ما يسلك ضمن دراسة النبر والتنغيم، وخاصة أنّ الكلام العربي ذو خاصية موسيقية، سواء أكان نثر أو شعرا مشكلا من مقاطع التفعيلات العروضية ، "التي تتألف من أسباب وأوتاد، تمت بقريب الصلة إلى نظام المقاطع "[17] الصوتية في ميدان الدرس اللساني الحديث.

فعلى سبيل المثال نجد الجاحظ قد استخدم لفظة التقطيع قاصد من خلالها تجزئة الكلام إلى مقاطع صوتية و ذلك في قوله :"الصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف"[18] موضحا في ذلك عمل الحركات العضوية للجهاز النطقي في إصدار الصوت اللغوي، وفي بيان تقطيع الحروف وتأليف الكلمات العربية .

هذا بالإضافة إلى العديد من الفلاسفة المسلمين وعلى رأسهم أبو نصر الفارابي، الذي يعد أول من استعمل لفظة المقطع بمعناها المعهود في الدرس اللساني الحديث في نوعين من مؤلفاته أولهما كتابه الموسوم بالموسيقى الكبير، وثانيهما كتاب شرح فيه كتاب العبارة لأرسطو طاليس ، فالمقطع عنده حصيلة اقتران حرف غير مصوت صامت بحرف مصوّت ( صائت ) وفي ذلك يقول "المقطع مجموع حرف مصوت وحرف غير مصوت "[19] مدركا في ذلك العلاقة الوطيدة بين كل من الصامت والصائت في بناء المقطع اللغوي .

وفي قول آخر له يذهب إلى القول: "كل حرف غير مصوت اتبع بمصوت قصير قرن به فإنه يسمى المقطع القصير والعرب يسمونه الحرف المتحرك من قبل أنهّم يسمّون المصوّتات القصيرة حركات، وكل حرف لم يتبع

بمصوت أصلا وهو يمكن أن يقرن له فإنّهم يسمونه الحرف الساكن، وكل حرف غير مصوت قرن به مصوت طويل فإنا نسميه المقطع الطويل"[20]، مطلقا تسمية المقطع القصير على ما يقابل الصامت المتبوع بصائت قصير ( ص ح)، والمقطع الطويل على ما يقابل الصّامت المتبوع بصائت طويل ( ص ح ح ) .

والأمر الثاني الذي يجعلنا ندرك أن الفارابي قد أدرك طبيعة الدراسة المقطعية كمصطلح وكمفهوم، هو حينما أماط عن رأي أرسطو الذي ذهب إلى عدم دلالة المقطع بوصفه وحدة مستقلة عن بقية المقاطع، على جزء من المعنى العام الذي تؤديه المقاطع مجتمعة في بنائها، حتى وضح الفارابي أن بعض المقاطع في اللغة العربية قد تبقى دالة على معنى وإن كانت منفردة، مستعملا في ذلك كلمة أبكم لتوضح فكرته هذه، فلاحظ أن "كثيرا من أجزاء الاسم ربّما كان اسما مفردا، لم يقصد به حيث أخذ جزءا للاسم المفرد، أن يكون جزءا له على أنه قد كان اسما دالا، مثل قولنا أبكم في العربية ، فإن قولنا أبْ ، وقولنا كمْ، كل واحد منهما دال على انفرادي لا من حيث هو جزء للاسم ،ولكن قال في أمثال هذه أن الأجزاء دالة بالعرض"[21]، موضحا في ذلك أراء قيمة في مجال الدراسة الصوتية المقطعية، وقد حذا حذوه كل من ابن سينا 425 هـ، و ابن رشد 595 هـ الذي استخدم هو الآخر مصطلح المقطع بدلالته العلمية كما يعرفها الدرس الحديث فهو عنده حصيلة ائتلاف يحدث بين الحرف المصوت وغير المصوت "[22]، مدركا في ذلك أن المقطع هو وحدة كمية متناسقة من صامت وصائت وإلى جانب ذلك لم يكتف هذا الفيلسوف بمصطلح واحد للدلالة على مفهوم المقطع، بل استخدم أيضا مصطلحا آخر وهو السلابي Sellabe الذي نقله من اليونانية إلى العربية، هذا وقد أشار أيضا إلى نوعين من المقاطع الرئيسية هما المقطع المقصور (القصير) الذي يتشكل من اجتماع صامت يتبعه مصوت قصير والمقطع الممدود الطويل، والذي يتشكل من اجتماع صامت يتبعه مصوت طويل، وذلك في حديثه عن النبر اللغوي وطبيعة حدوثه في اللغة العربية ، فيقول "أما المقاطع المقصورة ، فلا يستعملون فيها النبرات والنغم، إذا كانت في أوساط الأقاويل وأما إذا كانت في أواخر الأقاويل فإنهم يجعلون المقطع المقصور ممدودا ، فإذا كانت فتحة أرْدفوها بألف وإذا كانت ضمة أردفوها بواو ، وإذا كانت كسرة أردفوها بياء ...وقد يمدّون المقاطع المقصورة في أوساط الأقاويل إذا كان بعض الفصول الكبار ينتهي إلى مقاطع مقصورة في أقاويل جعلت فصولها الكبار تنتهي إلى مقاطع ممدودة مثل قوله تعالى : «**وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** »[23] وبالجملة إنّما يمدون المقطع المقصور عند الوقف"[24]،موضحا في ذلك الفروق الشكلية – الطول والقصر– بين المقاطع اللغوية، مشيرا إلى ملمح من الملامح الصوتية الأدائية التي تكسوا المنطوق كله وتكسبه خواصا تنبأ عن معناه، ويتم ذلك من خلال ارتباطه بالمقطع ارتباطا تلازميا، إذ لا يمكن أن ينفصل أحدهما عن

الآخر وإن التصقا، تكامل عملهما الوظيفي، وذلك لأن النبر هو زيادة قوة الارتكاز بالإشباع والتضعيف[25] والقصد من ذلك كله هو الضغط على مقطع من المقاطع، قصد إبرازه بالنسبة لبقية المقاطع الأخرى.

كما تفطن ابن سينا أيضا إلى توظيف النبر وتوزيعه داخل السلسلة الكلامية ودوره تحديد الدلالة و توجيهها، ويبدأ ذلك في قوله : « من أحوال النغم النبرات وهي هيئات في النغم مدّية غير حرفية تبدأ بها تارة وتتخلل الكلام تارة، وتعقب نهاية تارة وربما تكثر في الكلام ، وربما تقل ويكون فيها إشارات نحو الأغراض وربما كانت مطلقة للإشباع وتفخيم الكلام ، وربما أعطيت هذه النبرات بالحدة والثقل هيئات تصير بها دالة على أحوال أخرى من أحوال القائل، أنه متحيرا أو غضبان، وربما صارت المعاني مختلفة باختلافها" [26] موضحا في ذلك أن النبر موقعية تشكيلية تكون في أول الكلمة أو في وسطها أو في آخرها وهو ذو مقصدية دلالية، إذا ما حصلت هذه النبرات بحدة وثقل، وهذا ما أكده الدرس الصوتي الحديث، كونه يضفي طابعا خاصا على المتكلم عند تأديته لحدث الكلامي، إلى جانب غيره من الظواهر الأدائية الأخرى، كظاهرة التنغيم، هذه الظاهرة الصوتية تعمل على تلوين الكلام الإنساني بنغمات تتمثل في ارتفاعات وانخفاضات بحسب المقام المقول فيه، وما يؤكد ذلك ما ورد عن الفيلسوف الفارابي، حينما أشار إلى الوظيفة الدلالية للنغم والتنغيم في قوله « ومن فصول النغم الفصول التي تصير دالة على انفعالات النفس والغضب واللذة والأذى وأشباه هذه، فإن الإنسان له عند كل واحد من هذه الانفعالات نغمة تدل بواحد منها على عارض من عوارض نفسه ، وهذه إذا استعملت خيلت إلى السامع مع تلك الأشياء أنها دالة عليها »[27]، موضحا في ذلك الوظيفة الدلالية للتنغيم الصوتي، لكونه يعد عنصرا مكملا للمنطوق الإنساني من خلال بيان مقاصده الإبلاغية، ورادا أيضا على كل من أنكر جهود الأوائل فيما تعلق بالدراسات المقطعية وما فوق المقطعية.

## 2- الفكر الصوتي لدى المحدثين :

أما المحدثون فقد اعتمدوا في دراساتهم على مخابر وأجهزة دقيقة ساعدتهم على فهم وتحليل الصوت اللغوي، عبر الأزمنة المختلفة، كما لاحظوا أن الجهاز النطقي يتكوّن ويعتمد من الرئتين وما يليها من الأعضاء صعودا إلى الشفتين، والغرض كان مشتركا بين القدامى والمحدثين وهو الوصول إلى حقائق الأمور لكن الطريق إلى ذلك يختلف من عصر إلى عصر، فقد كان للأقدمين وسائلهم البسيطة مبنية على الذكاء والملاحظة الدقيقة التي تركوا بفضلها بصماتهم على ما خلفوه من آثار ودراسات، وجاء المحدثون بوسائلهم الجديدة المتطورة وحاولوا أن يواصلوا إظهار بواطن الدرس اللغوي دون أن يتمكنوا من الاستغناء عن تقليد القديم « لأن الجهود الصوتية التي قدمها أعلام اللغة والبلاغة العربية قديما قد شكلت معلما بارزا لا غنى للدارس العربي الحديث والمعاصر عنه»[28]، ولم يهدأ بالهم

حتى توصلوا إلى تحديد الخصائص الفسيولوجية والفيزيائية والسمعية لتلك الأصوات، بحيث صار من الوضوح بمكان إدراكها وتصنيفاتها من السهولة واليسر تعلمها وتعليمها على الرغم من تلك الاختلافات الطفيفة بينهما والتي يرجعها بعضهم إلى تطور بعض الأصوات اللغوية وكذا التطور التكنولوجي الذي وضح العديد من المسائل التي كانت غائبة عن ذهن كما أن المتأمل فيما ذكره هؤلاء وهؤلاء يلاحظ أنهم جميعا كانوا يلتقون عند وصف هذا الضرب من الأصوات وتصنيفه إلى قسميه الأساسيين الصوامت والصوائت، بادئين في ذلك بالطبع بما تقوم به أعضاء جهاز النطق ، أو ما أسماه البعض بالجوارح"[29] ودورها في صنع هذه الأصوات اللغوية وإبرازها، وهم في ذلك ينسبون كل صوت منها إلى الحركة التي يتم فيها إبراز تلك المجموعة الصوتية، ثم نجدهم يصفونها بعد ذلك ، تبعا لما يتميز به كل صوت أو مجموعة صوتية من الصفات الناشئة عن نوعية التحركات التي تحدث عند النطق الصوتي.

أما فيما يخص المعالجة المقطعية وما فوق المقطعية فقد اختلف اللغويون المحدثون وتعددت آراؤهم حول ماهية المقطع الصوتي، ولعل السبب في ذلك يعود إلى تعدد المذاهب وتباعد وجهات النظر ، ففي أول الأمر ثار جدال فيما بينهم حول أهمية المقطع في التحليل اللغوي، عندها انقسموا إلى فريقين، مؤيد وآخر معارض له، إلا أن الدراسات التجريبية القائمة على تسجيل حركة تيار الكلام الإنساني أثبتت، "أن الصدر لا يواصل ضغطا ثابتا خلال العملية النفسية وأن عضلات الصدر تنتج نبضة منفصلة من الضغط لكل مقطع[30].

هذا وقد ذكر لنا بولنجر أيضا أن الفونيمات لا حياة لها إلا داخل المقطعّ لأنها لا تنطق من المجموعة البشرية منفصلة وإنّما في شكل تجمعات بصفاتها وخصائصها وكيفية انتظامها في مقاطع تعتمد على طبيعة المقطع وتشكيلاته[31]، موضحا في ذلك أهمية المقطع في بيان نطق الفونيمات الصوتية أما لو عدنا إلى دراساتهم في قسمها المتعلق يبحث ماهية المقطع اللغوي لوجدنا بعضهم يعرفه على أنه أصغر وحدة صوتية يمكن النطق بها ويستطيع المتكلم أن ينتقل منها إلى غيرها من أجزاء الكلمة[32]. ويراه البعض الآخر، أنه "تأليف أصواتي بسيط تكون منه ( واحد أو أكثر ) كلمات اللغة ، متفق مع إيقاع التنفس الطبيعي ومع نظام اللغة في صوغ مفرداتها"[33]، أما بالنسبة لرمضان عبد التواب، فيعتبر المقطع أصغر وحدة صوتية يمكن أن تنفصل في تركيب الكلمة[34]، وبناء على ما سبق يمكن أن يعرف المقطع من خلال اتجاهين اثنين : الاتجاه صوتي والاتجاه الوظيفي.

فالاتجاه الصوتي يرى مؤيدوه أن المقطع تتابع بين حدين أدنين من الأسماع[35].ومعنى ذلك أن تشكيل المقاطع الصوتية يكون خاضعا لطبيعة الأصوات المجتمعة تبعا لما تتميز به، من جهر أوضوح سمعي، أما في الاتجاه الوظيفي فيعرفه، دي سوسير، بأنّه "الوحدة الأساسية التي يظهر بداخلها نشاط الفونيم"[36] ، كما يعرفه آخرون

بأنّه " أصغر كتلة في تركيب المفردة"[37]، ويضيف أصحاب هذا الاتجاه، إلى أنّ المقطع هو مجال الرحب الذي تظهر فيه حركة الفونيم، إذ لا حياة لها إلا في داخل المقطع، لأن هذه الفونيمات الصوتية لا تنطق منفصلة وإنما على شكل تجمعات أو عناقيد صوتية، فصفاتها وخصائصها، وكيفية انتظامها في المقاطع تعتمد على طبيعة المقطع وتشكيلاته[38] التي تمنح المتكلم فرصة أفضل لنطق كلامه وتوضيحه، وفق النطق المقطعي المتدرج.

هذا وقد اختلفت آراء اللغويين المحدثين أيضا، حول وجود النبر في اللغة العربية ، إذ لم يكن معروفا في القديم كما هو الآن، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أنه لم يكن يشكل عندهم ملمحا تمييزيا عاما، وعاملا أساسيا في تغيير المعاني حيث يذهب هنري فليش إلى القول"أن نبر الكلمة فكرة مجهولة تماما لدى النحاة العرب، بل لم نجد لها اسما في سائر مصطلحاتهم تلك التي كانت بالرغم من ذلك وافرة غزيرة، ذلك أن نبر الكلمة لم يؤدي أي دور في علم العروض العربي وهو المؤسس على تتابع مجموعة من المقاطع الطويلة والقصيرة المحددة فهو على هذا كمي، ولقد لزم واضعوا هذا العروض الصمت إزاء موضوعه تماما، كما فعل النحاة وقفى على أثرهم المؤلفون في علم التجويد[39].

وهو في ذلك ينكر معرفة اللغويين العرب لظاهرة النبر كمصطلح وكمفهوم، وهو رأي مردود والدليل على ذلك، أنهم عبروا عنه بمصطلح الهمز وغيره من المصطلحات التي نوهنا لها من قبل، وفي مقابل ذلك نجد المستشرق بروكلمان يثبت وجود النبر في اللغة العربية القديمة إذ يقول : يدل نوع من النبر تغلب عليه الموسيقية ويتوقف على كمية المقطع، فإنه يسير من مؤخرة الكلمة نحو مقدمتها، حتى يقابل مقطعا طويلا، فيقف عليه فإذا لم يكن في الكلمة مقطع طويل ، فإن النبر يقع على المقطع الأول منها [40]، وإذا تفحصنا قوله هذا نجده أنه يؤمن إيمانا واضحا بأن اللغة العربية، هي لغة تتميز بنبرها الواضح الذي لا يفهم المراد إلا بوجوده .ولما كان النبر يساعد على تحديد الوحدات النحوية في السلسلة الأصوات المنطوقة، فقد حاول العديد من الباحثين المحدثين ضبط بعض قواعده ومواقعه في اللغة العربية « معتمدين في ذلك على القراءات القرآنية التي تمثل إلى حد كبير النطق العربي الفصيح الذي تناقلته الأمة العربية جيل إلى جيل[41] عندها عملوا على تحديد مواضعه في مقاطع الكلمة العربية على الشكل الآتي :

**– النبر على المقطع الأخير من الكلمة:**

يتحقق وجود النبر على المقطع الأخير في صورتين إذا كان المقطع من النوع الرابع ، الذي يرمز له بـ ( ص ح ح ص )، أي إنه مكون من صوتين ساكنين بينهما صوت لين طويل، و مثال ذلك قول الله تعالى: « **لعلّكم تَشْكرون** »[42]، فالمقطع المنبور هو المقطع الأخير من كلمة تشكرون ، **رون** .

- **النبر على المقطع ما قبل الأخير :**

يكون النبر على المقطع ما قبل الأخير إذا لم يكن من النوعين الرابع والخامس، ولم يكن من النوع الذي تجتمع فيه مقاطع من النوع الأول ( ص ح ) ، فكلمة يُرْجِعْكُمْ – والتي مقاطعها كالآتي: يُرْ- جِعْ- كُمْ، يكون فيها النبر على المقطع ما قبل الأخير وهو (جعْ) من نوع الثاني (ص ح ص) .

- **النبر على المقطع الأول :**

يكون النبر على المقطع الأول إذا اجتمع في الكلمة ثلاثة مقاطع من النوع الأول مقطع قصير ( ص، ح) مثل رَكِبَ، كَتَبَ ، كَلَمَ ، عندها يقع النبر الصرفي[43] على المقطع الأول من كل كلمة من هذه الكلمات العربية، هذا إلى جانب حديثهم عن النبر السياقي و الذي يكون من وظيفة المعنى العام أي أنه نبر دلالي.

ولكون التنغيم يشكل أحد المؤثرات الإيقاعية التي توضح لنا أنواع الحدث الكلامي بشكل عام فقد أشار المحدثون أيضا إلى هذه الظاهرة الصوتية الأدائية ومثالهم قول كمال بشر في قوله «التنغيم مصطلح يدل على ارتفاع الصوت انخفاضه في الكلام ويسمى أيضا موسيقى الكلام" [44] مشيرا إلى الطرق التي يسلكها اللسان في بيان معاني الكلام، في حين ذهب ماريوباي إلى تعريفه في قوله "أنّه تتابع من النغمات الموسيقية أو الإيقاعات في حدث كلامي معين[45]"، موضحا مدى ارتباط التنغيم بنوعية الحدث الكلامي المنطوق .

أما تمام حسان فيعد من الذين أفاضوا في تعريف التنغيم فقد انطلق في تعريفه له، مما اشتهر عند سابقيه في أنه "ارتفاع و انخفاض في الصوت أثناء الكلام "[46]، إلا أنّه أضاف في مواطن أخرى من كتابه كلاما يوضح به أن « طريقة رفع الصوت وخفضه تختلف في الإثبات عنها في الاستفهام»[47]، ومعنى قوله هذا أن الارتفاع والانخفاض في درجات الموسيقى الكلامية، قد يساعدنا على التمييز بين أنواع الجمل ووظائفها النحوية وما يتصل بذلك من معاني تعبيرية دلالية.

وبناء على ما سبق يمكننا القول أن من أهم الأفكار الصوتية التي عالجها العرب القدامى فكرة الصوت اللغوي، وما يحدثه من تأثيرات إيقاعية ودلالية نتيجة تجاوره مع غيره من الأصوات بقسميها الصوامت والصوائت داخل التراكيب اللغوية، غير أن هذا الصرح الذي خلفه العرب القدامى قد شكل أرضية خصبة انطلقت منها جلّ البحوث الحديثة، التي أماطت اللثام عن الكثير من القضايا اللسانية، والتي أثبتت جدتها ودقتها بفضل علم التشريح وعلم الفيزياء، اللذان كانا عاملان أساسيان من عوامل تقدم الدراسات الصوتية على وجه الخصوص، وإعطاءها درجة أكبر من الدقة والضبط.

**الهوامش:**


1. فندرس، اللغة ،ترجمة، عبد الحميد الدواخلي، ومحمد قصاص، القاهرة، د ط، 1980، ص43
2. أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1955، ج1، ص31
3. ينظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، قدم له علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ج1، ص211.
4. أبو عمرو الداني، المحكم في نقط المصحف، تح، عزة حسن، دمشق، دط،1960، ص28.
5. مراد عبد الرحمن مبروك، من الصوت إلى النص نحو نسق منهجي جديد لدراسة النص الشعري، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1، 2002، ص18.
6. رمضان عبد التواب، مدخل إلى علم اللغة. مكتب الخانجي بالقاهرة، دار الرفاعي بالرياض، ط1، 1983، ص14.
7. ينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تح: المهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ت، ط، ج 1، ص52.
8. أبو الفتح عمرو بن عثمان بن قنبر، سيبويه ، الكتاب، عالم الكتب ، طبعة بيروت، لبنان، دت، ج4، ص434.
9. سيبويه عمر بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تح و شرح: عبد السلام هارون،ط5، ص 431-436.
10. عبد الرحمن أيوب، الكلام إنتاجه وتحليله، الكويت، دط، 1984، ص37.
11. أبو الفتح عثمان ابن جني، سر صناعة الإعراب، تح: حسن الهنداوي، دار القلم، دمشق،ط2،1993، ص41-59 وما بعدهما.
12. أبو عمر عثمان ابن جني، سر صناعة الإعراب، (م.س)، ج1، ص19.
13. أبو علي حسين ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف، تح: حسن الطيان ومحمد مير علم،1983، ص85-86.
14. رمضان عبد التواب، مدخل إلى علم اللغة، ص16.
15. سورة الرحمن، الآية 66.
16. ابن جني ، الخصائص، ج2، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1983، ص158.
17. ينظر: عبد القادر عبد الجليل، التنوعات اللغوية، دار الصفاء للنشر و التوزيع، ط1، 1997، ص213.
18. أبو عثمان عمر ابن بحر الجاحظ ، البيان و التبيين،دار الإحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1968،ج2، ص67.
19. الفارابي ، شرح كتاب أرسطو طاليس في العبارة، تقديم: كوتش اليسوعي و ستانلي مارو اليسوعي، دار المشرق، بيروت، ط2، دت، ص49، نقلا عن طيبي أمينة، الدرس الصوتي عند الفلاسفة المسلمين، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سيدي بلعباس، السنة الجامعية 2004-2005، ص 249.
20. شرح كتاب أرسطو طاليس في العبارة، ص49، نقلا عن طيبي أمينة، الدرس الصوتي عند الفلاسفة المسلمين، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سيدي بلعباس، السنة الجامعية 2004-2005، ص249.

21. الفارابي، شرح كتاب أرسطو طاليس في العبارة، تقديم كوتش اليسوعي وستانلي مارو اليسوعي، دار المشرق ، بيروت، ط2، دت، ص49، نقلا عن طيبي أمينة، الدرس الصوتي عند الفلاسفة المسلمين، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سيدي بلعباس، السنة الجامعية 2004-2005، ص252.
22. عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1981، ص262.
23. سورة الأحزاب، الآية 10 .
24. ابن رشد، تلخيص الخطابة، تح:عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت و دار القلم، بيروت، لبنان، ص286-287.
25. أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، دار الكتب المصرية، تح: محمد علي النجار، ط1، د.ت، ج3،ص 123.
26. عبد السلام المسدي ، التفكير اللساني في الحضارة ، ص 266 .
27. الفارابي ، الموسيقى الكبير ، 1071، نقلا عن طيبي أمينة، الدرس الصوتي عند الفلاسفة المسلمين، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سيدي بلعباس، السنة الجامعية 2004-2005، ص282.
28. عقاق قادة، في السيميائيات العربية، قراءة في المنجز التراثي. مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، 2004، ص109.
29. عبد العزيز أحمد علام وعبد الله ربيع محمود، علم الصوتيات، مكتبة الرشد، ط3، 2004، ص 206.
30. عبد القادر عبد الجليل ، التنوعات اللغوية ، دار الصفاء للنشر والتوزيع، ط1، 1997، ص 13.
31. حسام البهنساوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب، مكتبة الزهراء، جمهورية مصر العربية، القاهرة، ط1، 2005، ص 138، نقلا عن Boliger, Aspect of language, p47.
32. عبد الغفار حامد الهلال، أصوات اللغة العربية ، مطبعة الجبلاوي، مصر، ط2، 1988، ص 199 .
33. برتيل مالبرج ، علم اللغة ،تر: عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، مصر ، د.ت، ص 164 .
34. رمضان عبد التواب ،مدخل إلى علم اللغة، مكتبة الخانجي بالقاهرة، دار الرفاعي بالرياض، ط1، 1983، ص103.
35. عبد القادر عبد الجليل، هندسة المقاطع الصوتية وموسيقى الشعر العربي، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان،ط1، 1998، ص 47 .
36. فردينارد دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، تر: يوسف غازي، و مجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة و النشر، 1986، ص57، و ينظر : عبد القادر عبد الجليل، هندسة المقاطع الصوتية، ص48.
37. عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ص214/ أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص238.
38. عبد القادر عبد الجليل، مرجع نفسه، ص 216.
39. ينظر:هنري فليش، العربية الفصحى ،تر: عبد الصبور شاهين، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2،1983،ص 49 .
40. كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي،تر: محمود فهمي حجازي، القاهرة، 1993، ج2/ص 61 .

41. ينظر: عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية ، ص 171.
42. البقرة، الآية 52.
43. لأن النبر في الكلمات العربية من وظيفة الميزان الصرفي، ينظر تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، القاهرة، 1979، ص174.
44. كمال بشر، علم اللغة، العام،دار المعارف، مصر، ط2، 1972، ص 163.
45. ماريوباي ، أسس علم اللغة ،تر: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1983، ص 93 .
46. تمام حسان ، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، دار البيضاء، المغرب، 1973، ص 198 .
47. المرجع نفسه، صفحة نفسها.